بسم الله الرحمن الرحيم

٩٢ - سورة الليل

مكية ، وآيها إحدى وعشرون . وقد تقدم قوله ﷺ لمعاذ[١] : هلَّا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائيّ في: ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة في المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ)

[٢] (وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ)

[٣] (وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ)

[٤] (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ)

« وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ » أى يغشى الشمس أو النهار بظلمته ، فيذهب بذاك الضياء « وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ » أى ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين بطلوع الشمس .

قال الإمام : والتعبير فى الغشيان بالمضارع ، لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور الذى هو أكمل مظاهر الوجود ، حتى عبر به عن الوجود نفسه . أما تجلى النهار فهو لازمله . لهذا عبر عنه بالماضى كما سبق بيانه « وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ » أى والقادر الذى خلق صنفى الذكر والأنثى من كل نوع له توالد . فـ (ما) موصولة بمعنى (من) أوثرت لإرادة الوصفية ، كما تقدم .

قال الإمام : وإنما أقسم بذاته بهذا العنوان ، لما فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، والإشارة إلى الإبداع فى الصنع . إذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى ، فى الحيوان ، يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ، كما يزعم بعض الجاحدين . فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر أو كون الأنثى . فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرا وتارة أنثى ، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع . انتهى .

وقوله « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ » جواب القسم. أو هو مقدر ، كما مر تفصيله . أى مختلف في جزائه ، ومفرّق فى عاقبته . فمنه ما يسعد به الساعى ومنه ما يشقى به ، فشتان ما بينهما ، كما فصله بعد . و(شتى) إما جمع شتيت أو شت ، بمعنى متفرق ، والمصدر المضاف يفيد العموم. فيكون جمعاً معنى . ولذا أخبر عنه بـ (شتى) وهو جمع . وفيه وجه آخر وهو أنه مفرد مصدر مؤنث. كذكرى وبشرى . فهو بتقدير مضاف ، أو مؤوّل، أو بجعله عين الافتراق، مبالغة.

قال الرازىّ : ويقرب من هذه الآية قوله[1] (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ) وقوله[2] (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ، لَّا يَسْتَوُونَ) وقوله[3] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ)

[٦] (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ)

[٧] (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ)

[٨] (وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ)

[٩] (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ)

[١٠] (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ)

[١١] (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ)

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ » تفصيل لتلك المساعى الشتى ، وتبيين لمآلها كما تقدم .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٠] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٨] .
(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢١] .

قال الرازيّ : وفى « أَعْطَىٰ » وجهان :

أحدها ـ أن يكون المراد إنفاق المـال فى جميع وجوه الخير من عتق الرقاب ، وفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوّهم. كما كان يفعله أبو بكر، سواء كان ذلك واجباً أو نفلًا. وإطلاق هذا كالإطلاق فى قوله[1] (وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ) فإن المراد منه كل ما كان إنفاقاً فى سبيل الله، سواء كان واجباً أو نفلا. وقد مدح الله قوماً فقال[2] (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) وقال فى آخر هذه السورة[3] (وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ) الآية.

وثانيهما ـ أن قوله (أَعْطَىٰ) يتناول إعطاء حقوق المال، وإعطاء حقوق النفس فى طاعة الله تعالى. يقال : فلان أعطى الطاعة وأعطى السمعة. انتهى.

إلا أن الأول هو المناسب للإعطاء. لأن المعروف فيه تعلقه بالمال خصوصاً وقد وقع فى مقابلة ذكر البخل والمال « وَٱتَّقَىٰ » أى ربه فاجتنب محارمه « وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ » أى بالمثوبة الحسنى. قال قتادة: أى صدق بموعود الله الحسن. وهو بمعنى قول مجاهد، إنها الجنة كما قال تعالى[4]: (وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا) فسمى مضاعفة الأجر (حسنى) وقال القاشانىّ : أى صدق بالفضيلة الحسنى التى هى مرتبة الكمال بالإيمان العلمىّ ، إذ لو لم يتيقن بوجود كمال كامل لم يمكنه الترقى. «فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ» أى فسنهيئه ونوفقه للطريقة اليسرى ، التى هى السلوك فى طريق الحق ، لقوة يقينه.

قال الشهاب : ولما كانت مؤدية إلى اليسر ، وهو الأمر السهل الذى يستريح به الناس، وصفت بأنها يسرى ، على أنه استعارة مصرحة أو مجاز مرسل أو تجوّز فى الإسناد.

وأمّا مَنۢ بَخِلَ » أى بالنفقة فى سبيل الله ، ومنع ماوهب الله له من فضله من صرفه فى الوجوه التى أمر الله بصرفه فيها « وَٱسْتَغْنَىٰ » أى عن ربه فلم يرغب إليه بالعمل له

(١) [٢ / البقرة / ٣] .
(٢) [٧٦ / الإنسان / ٨] .
(٣) [٩٢ / الليل / ١٧و١٨] .
(٤) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

بطاعته بالزيادة فيما خوّله ، أو استغنى بماله عن كسب الفضيلة ، وعمه به عن الحق « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ » أي بوجود المثوبة للحسنى ، لمن آمن بالحق ، لاستغنائه بالحياة الدنيا واحتجابه بها عن عالم الآخرة . « فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ » أي للطريقة العسرى المؤدية إلى الشقاء الأبديّ.

قال الإمام : الخطة العسرى هي الخطة التي يحط فيها الإنسان من نفسه ، ويغض من حقها وينزل بها إلى حضيض البهيمية ، ويغمسها في أوحال الخطيئة . وهي أعسر الخطتين على الإنسان ، لأنه لا يجد معيناً عليها ؛ لا من فطرته ولا من الناس « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ » أي وما يفيده ماله الذي تعب في تحصيله ، وأفنى عمره في حفظه وبطر الحق لأجله ، إذا هلك ، من قولهم (تردى من الجبل وفي الهوة) وفي التعبير به إشارة إلى أنه بما قدمه من أعماله الخبيثة ، هو المهلك والموقع لنفسه . وهو الحافر على حتفه بظلفه و (ما) نافية أو استفهام في معنى الإنكار . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ)

[١٣] (وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ)

[١٤] (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ)

[١٥] (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)

[١٦] (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٧] (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى)

[١٨] (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ)

[١٩] (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ)

[٢٠] (إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ)

[٢١] (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ)

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ » استئناف مقرر لماقبله . أى علينا بموجب قضائنا المبنىّ على الحكم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للإصلاح فى الأرض ، أن نبين لهم طريق الهدى ليجتنبوا مواقع الردى . وقد فعل سبحانه ذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والتمكين من الاستدلال والاستبصار ، بخلق العقل وهبة الاختيار .

« وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ » أى ملكا وخلقا . فلا يضرنا توليكم عن الهدى . وذلك لغناه تعالى المطلق ، وتفرده بملك ما فى الدارين ، وكونه فى قبضة تصرفه . لا يحول بينه وبينه أحد ، ولا يحصله أحد ، حتى يضر عدم اهتدائه أو ينفع اهتداؤه . وفيه إشارة إلى تناهى عظمته وتكامل قهره وجبروته . وإن من كان كذلك ، فجدير أن يبادر لطاعته ويحذر من معصيته . ولذا رتب عليه قوله « فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ » أى تتلظى وتتوهج . وهى نار الآخرة « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ » أى بالحق الذى جاءه « وَتَوَلَّىٰ » أى عن آيات ربه وبراهينها التى وضح أمرها وبهر نورها ، عنادا وكفرا « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ » أى ينفق ماله فى سبيل الخير ، يتزكى عن رجس البخل ودانس الإمساك « وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ » أى من يد يكافئه عليها . أى لا يؤتيه للمكافأة والمعاوضة « إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ » أى لكن يؤتيه ابتغاء وجه ربه وطلب مرضاته . لا لغرض آخر من مكافأة أو محمدة أو سمعة . وفى حصر (الأتقى) بالمنفق ، على الشريطة المذكورة ، عناية عظيمة به ، وترغيب شديد فى اللحاق به ، كيف لا ؟ وبالمال قوام الأعمال ، ورفع مبانى الرشاد وهدم صروح الفساد . وقوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ » قال ابن جرير [1] : أى ولسوف يرضى هذا المؤتى ماله فى حقوق الله عز وجل ، يتزكى بما يثيبه الله فى الآخرة عوضا مما أتى فى الدنيا فى سبيله إذا لقى ربه تبارك وتعالى . ففيه وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضا . وهذا على ، إن ضمير (يرضى) لـ (الأتقى) لا للرب . قال الشهاب : وهو الأنسب بالسياق واتساق الضمائر .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

وذهب بعضهم إلى الثانى ، ومنهم الإمام، قال : أى ولسوف يرضى الله عن ذلك الأتق. الطالب بصفةرضاه (ثم قال) : والتعبير بـ(سوف) لإفادة أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد درجة الرضا الإلهىّ .

تنبيه :

قال ابن كثير: ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها. فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى[1] (وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى*ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ* وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة. فإنه كان صدّيقاً تقياً كريما جواداً بذّالاً لأمواله فى طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ . فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم. ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها. ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود ، وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله! لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ وفى الصحيحين[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة: ياعبدالله هذا خير. فقال أبو بكر: يارسول الله! ماعلى من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . انتهى .

---

(١) [٩٢ / الليل / ١٧ـ١٩] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤ ـ باب الريان للصائمين ، حديث رقم ٩٦٣ ، عن أبى هريرة .